بدون سكر

دانية قصاص

غلاف: هنا أحمد

روايات بلا

قصة قصيرة

بدون سكر

دانية قصاص

تصميم داخلي وخارجي / هنا أحمد

المقدمة

لا يعرف السُكّر بأنه يضيف الحلاوة لأشيائنا المرة.

ولا يعرف النجم بأنه يضيء في سمائنا المعتمة.

كذلك هناك الكثير ممن هم حولنا قد لا يدركون الأثر الجميل لوجودهم في حياتنا إن لم نخبرهم ذلك بأنفسنا.

تذكر دائمًا أن كل الأشياء الجميلة قد تحتاج من يخبرها بأنها جميلة.

كانت تدندن وهي تتحرك بخفة ونشاط بين أطباق العجين، وصواني الفرن، وتذويب الشوكولا، غدًا موعد الحفل الذي سيختار فيه أمير هذا القصر فتاة من العامة ومن الطبقة العاملة لتكون شريكة حياته وأميرة هذه البلاد، ثم سيدعم كل مشاريع العمل القائمة على ذات عملها، أخبروها بأنها كعاملة في القصر يحلها الحضور ففرحت كثيرًا وأضاءت سراج أحلامها المنطفئ ، ربما فرصة اختيارها هي فرصة ضئيلة لكنها تحتاج أسبابًا لصنع الأمل وإن كانت وهمية، ودافعًا للفرح ولو تبعه الكثير من الدموع، هي بحاجة لشيء مختلف يضيف المعنى لحياتها ولو كان ذلك حلمًا مستحيلًا لكنه يعطيها بعض الحق في الشعور لتتذكر أنها إنسانة وليست آلة للعمل طوال الوقت، ربما حياة الأميرات ستسعدها.

دلف الطباخ ليل ملقيًا تحية، فقالت بحماس وهي تتجه نحوه بصينية الحلوى المقطعة بشكل قلوب ومزينة بالشوكولا:

_تذوق قطعة وأعطني رأيك.

_لا أستطيع.

_لماذا لا تستطيع أن تتناول شيئًا حلوًا يا ليل؟

_لأنني أتحلى بالكثير من الصبر.

كتمت غيظها، أضاف:

_ستحضرين الحفل؟

_بكل تأكيد.

قالتها وهي تعمل بخلط المكونات، فأردف ليل:

_أنصحكِ بعدم الحضور.

قاطعته بانفعال وهي تكسر حبات البيض:

_معك حق، لا حظ لي بينهن، فتاة بشعة، خادمة، ولا أجيد سوى الطهي أي أميرة سأكون؟

صاح مُهدئًا إياها وهو يسحب سلة البيض من بين يديها:

_كفاكِ انتهت سلة البيض ما ذنبه لتكسريه دفعة واحدة! اكسري انفعالك وتهورك أولًا، كنت أقصد أنك أثمن من أن تتم مقارنتك بالكثير من الفتيات.

_سأكسر رأسك أنت ونصائحك، ليل أغرب عن وجهي حالًا!

صمتت ثم صاحت بانفعال وهي تدق الطاولة بالملعقة الخشبية:

_لقد أفسدت الوصفة، إنني فتاة حمقاء.

_صحيح.

نظرت إليه أيؤكد كونها فتاة حمقاء؟! أوضح مبتسمًا:

_أقصد أن الوصفة فسدت فعلًا صحيح،

لا عليكِ سأعدّها بدلًا منك، لا تزال قائمة الأطعمة المطلوب منا تجهيزها للحفل طويلة جدًا كلسانكِ.

_ليييل.

صرخت به، لكنه تابع ببرود:

_وبرغم كونها طويلة لكنها مليئة بوصفات الحلوى، وكذلك لسانك إنه يقطر بالكلمات الحُلوة.

لم تكد تبتسم حتى أضاف وهو يمدد العجين:

_لكنني أكره الأشياء الحلوة، وأحب كل ما هو خالٍ من السكر كما تعلمين.

_هذا لأنكَ إنسانٌ مرٌ ومستفز وخالٍ من كلِّ جميل، تبًا، تبًا لك!

قالتها وخرجت من قسم تحضير الحلويات.

***

وقفت أمام المرآة تلقي على نفسها نظرة أخيرة، شعرت بأنها مميزة، لقد اختارت فستانًا ورديًا أنيقًا ومحتشمًا، فالحشمة سمة الأميرات في كل زمان ومكان حتى حفلاتهن، حملت علبة حلوياتها الصغيرة لتقدمها للأمير ثم خرجت، صادفت ليل في طريقها للقاعة.

ابتسم قائلًا:

_هل أنصحك نصيحة؟

_نعم، إن كانت بأسلوبٍ حسن.

_لا أعرف من يكون حسن، وما هو أسلوبه، لكنني متيقن بأنني إن لم أنتقي كلماتي فستضربينني أنا ونصيحتي في عرض الحائط.

صمت، فقالت:

_تفضل يا ليل.

_استمدي الأمل والحب من قلبكِ يا سُهيلة قبل أن تبحثي عنهما عند الآخرين.

***

عند دخولها دُهشت بعدد الحاضرات وبفساتينهن الفاخرة، اهتزت ثقتها بنفسها وتضاءل حجم تفاؤلها، انتبهت لوجود سيدة معها قائمة طويلة بأسماء الحاضرات تنادي عليهن تباعًا، انتظرت حتى نادت بإسمها فسارعت وهي تحث الخطا بوقار وحذر كي لا تتعثر بفستانها، صعدت الدرجات وتسلّمت بطاقة على شكل تاج تحتوي اسمها ورقم عشرين، ثم اتجهت بخطى مثقلة بالتوتر نحو الركن الأيمن كما رأت الفتيات يتجهن حينما يستلمن البطاقة، فوجدت الأمير جالسًا هناك، ابتسم لها وأخذ يتحدث باستفاضة عن نفسه، وأمجاده، وأحلامه، مما جعلها تتساءل (هل يعيد هذه الأسطوانة لكل الفتيات؟) شعرت بالصداع نيابة عنه، سألها عن اسمها وعملها وكأنه قد انتبه لها للتو، كادت تتحدث لكنه قاطعها مجددًا بالحديث عن نفسه ثم سألها عن سبب حضورها، شعرت بالإحراج وبدا لها

أميرًا متعجرفًا غارقًا في حب ذاته، لم تستطع كبت انفعالها:

_اعذرني، ولكن هل تعاني من النرجسية يا سيدي؟

قال بثقة ونبرة درامية:

_أوه! أعاني؟ أنا أتنعم بها، تذكري أن النرجس وردًا وجمعيهن جاؤوا لأحوّل لهن حياتهم لحياة وردية و.....

كتمت ضحكتها، وشردت أثناء كلامه وتعظيمه لذاته، أحذت تُفكّر في هذه الرائحة المنبعثة منذ مدة قصيرة، لقد بدت لها مألوفة، هتفت فجأة:

_ كأن هناك ما يحترق.

_هي مشاعركن بالتأكيد وأنتن تنتظرن قراري.

نظرت حولها واستدارت نحو اليمين وإذ بالنار أكلت إحدى الستائر وبعض الطاولات في القاعة التي بدأت تضطرب.

_سيدي سنحترق بالفعل.

_يا إلهي! إنها نار الحب والغيرة في قلوبكن.

قال بغرور وكأنه بمعزلٍ عما حوله تمامًا، تناول حبة من حلوياتها فاختنق وقال بانفعال:

_لماذا لم تخبريني أنك تعملين هنا؟ إنه نفس الكعك الذي أتذوقه في جميع المناسبات.

أجابته بنزق وهي على وشك البكاء:

_لم تمنحني فرصة للكلام، علينا الخروج بسرعة ستصل النار لمدخل القاعة.

_نار؟

نهض سريعًا وفغر فاهه فزعًا وهو ينظر للقاعة:

_لماذا لم تخبرينني بأن هناك حريق؟

_كدتُ أموت وأنا أكرر ذلك على مسامعك يا محور الكون!

ركضا معًا ونزلا ثلثي الدراجات، وقف فجأة مستدركًا:

_هيا لنصعد، لقد تذكرت هناك مخرج آخر بالأعلى.

كادت تفقد أعصابها، كزّت على أسنانها مبتلعة وابلًا من الغضب والحماقات.

في اليوم التالي تبين لهم أن الحريق كان بسبب سقوط إحدى الشموع العلوية للإنارة فوق الستارة، ولحسن الحظ لم يتضرر أي أحد واستطاعوا إخمادها قبل خروجها من القاعة لبقية أنحاء القصر.

دلف ليل المطبخ فوجدها تحضر الفطائر بملامح ذابلة.

_صباح الخير، كيف حالكِ؟

_لستُ بخير.

اعترفت بخفوت، وكانت هادئة جدًّا على غير عادتها، لم يشأ إزعاجها فأوقد نار الفرن ثم بدأ بعمله.

طُرق الباب ثم دخل حارس طويل.

_على الآنسة سُهيلة صاحبة الرقم عشرين المجيء معي، سأنتظرك في الخارج، معك خمس دقائق.

قال كلامه برسمية ثم خرج، أزعجتها نظرات الفضول التي تطلُّ من أعين بقية العاملين في المطبخ، اقترب ليل متسائلًا:

_ما الأمر؟

_لا أدري، إنني غبية لقد تفوهت بالحماقات البارحة، ربما هناك عقاب ما.

تمتمت بلا مبالاة وهي تخلع مريولها وتمسح كفيها به قبل أن تخرج، دلفت حيث أوصلها الحارس لإحدى غرف القصر وجدت ثلاثة

فتيات مثلها تنتظرن مُترقّبات، ويتسمن بالبساطة، دخل الأمير لمنتصف الغرفة ووقف حارساه أمام الباب، كان لا يشبه ذلك الشخص الموجود في الحفل بتاتًا، بدا الآن جادًا، حكيمًا، حازمًا، يسمع أكثر مما يتكلم، وجّه إليهن عدة أسئلة ثم أخبرهن أنهن المختارات من بين الجميع، عمَّ الصمت لوهلة بدا الأمر غريبًا عليهن، أيعقل هذا؟ هل سيتزوج أربعة فتيات في يوم واحد؟

قطع عليهن استرسالهن بالتفكير مكملًا كلامه مخبرًا إياهن أنه يحتاج لشريكة مخلصة تحبه وتحب شعبه، وتكون معطاءة في جهدها ووقتها، أخبرهن أنه ألتمس فيهن هذه الصفات إضافة لأنهن يمتلكن شخصيات قوية، صادقة وقادرة على تحمل المسؤولية، وأنه سيرسلهن في مهمة صعبة لمدة أسبوع، وعند عودتهن سيختار واحدة منهن لتكون الأميرة.

في صباح اليوم التالي كانت الفتيات على متن سفينة صغيرة متجهة لإحدى الجزر القديمة، حضّرت سُهيلة أكواب من الشاي للجميع وزعتها على الحارسين وربان السفينة وليل الذي سيعمل كمساعدٍ له لخبرته في الإبحار، ناولته كوبه كاد يسألها فقالت:

_مُرّة.

صمتت ثم أضافت:

_مثلك!

ضحك فابتسمت، ليل يحب المشاكسة إذن فليحتملها، لطالما جعل ضغطها يرتفع بكلماته، عادت حيث الفتيات في مؤخرة السفينة جالسات باسترخاء يصغين لصوت القارب وهو يشق عباب المياه، ونسيم الصباح يداعب وجوههن بلطف، ناولتهن الأكواب ثم جلست، تأملت كفيها لبرهة ثم قالت مبددة ثقل الصمت:

_لقد احترقت هاتين الكفين كثيرًا، لقد صنعت الكثير النكهات لكنني للآن لم أجد نكهة لحياتي.

تبِعَ صوتها صوتٌ ناعم للفتاة الجالسة قبالتها:

_لطالما أحببت البلاد وتمنيت ازدهارها، أحلم بأن يختارني لأنني أمتلك الكثير من الحب والطموح، ولو تم دعم عملي ستستفيد معي الكثير من الفتيات الأخريات، لقد أصبحت يداي كمنخل الطحين من وخزات الإبر المتتابعة أثناء الخياطة.

قالت الثالثة بعد رشفة من الشاي:

_أما أنا فقد جنيت الكثير من المحاصيل لأجل الآخرين بيدي، لكنني لم أجني يومًا شيئًا لأجلي، ولا أدري لماذا أنا هنا الآن!

نظرن نحو الرابعة الواقفة في ركن بعيد وتساءلن عن نوع عملها.

أقبل ليل ممازحًا:

_هل نرميكن في عرض البحر ونعود لترتحن من هذه الحياة، ما رأيكن؟

فضحكت الفتيات.

كانت الجزيرة بدائية جدًا، عملت الفتيات بجد طوال النهار، إحداهن في تتفقد المحاصيل والسؤال عن المزروعات وكتابة ما يلزمهن هنا ليحضره الحراس، والثانية في الطهي وجمع الموارد الغذائية وإضافة الملاحظات لدفترها من أجل إخبار الأمير بها، الثالثة كانت تتجول وتأخذ المقاسات الخاصة بالأشخاص أصحاب الملابس البالية، والرابعة كانت معلمة أطفال فأخذت تتحدث إلى السكان لتستكشف مدى الثقافة والتعليم الذي يتمتع به أهل الجزيرة.

في المساء خلدت الفتيات للنوم في كوخٍ صغير وجده ليل والحراس لهن في الظهيرة وأجروا عليه بعض الإصلاحات، عاد الربان لعمله في البحر ونام ليل والحراس خارج ذلك الكوخ مفترشين الأرض وملتحفين بسماءٍ مُطرزة بالنجمات.

تسللت سُهيلة خُفية متجهة للشاطئ، جلست تتأمل والسكينة ملء قلبها، كانت الأمواج تتكسر فوق الرمال وتلامس أصابع قدمها، ورذاذ الماء يلامس وجهها بلطف كل حين وآخر.

_لا تزالين يقظة؟

ارتعشت.

_مالذي جاء بك يا ليل؟

_بعض الأرق.

كان خائفًا عليها فتبعها فور خروجها.

_شكرًا لأنك أتيت.

فوجئ بكلامها، جلس على بعد خطواتٍ منها، أضافت:

_لا أقصد الآن، لكن مجيئك إلى الجزيرة معنا ساعدني كثيرًا، لقد أوقدت النار، وحملت لي القدور الكبيرة، وزّعت الأطباق معي، دعمتني بالكلام أمامهم وشجعتني لقد كنت متوترة، وكلما احتجت شيئًا وجدتك لجانبي، لم أكن أعرف أن وجودك يجعل الأشياء أسهل مما هي عليه.

_إنه واجبي.

لم يجد طريقة لطيفة للتعبير مثلها فاكتفى بتلك الكلمات ثم قال:

_انظري إلى ذلك النجم.

نظرت حيث يشير.

_أتعرفين ما اسمه؟

ابتسمت:

_لا، فأنا لم أسأله سابقًا.

أجابت ببعض المزاح، فأردف:

_إنه النجم سُهيل الذي تحملين اسمه، يظهر في أواخر أيام الصيف ليدلَّ على التغيّر الفصلي، ويعتبر نجم سُهيل من ألمع النجوم التي تشكل كوكبة القاعدة، وهو في المرتبة الثانية لمعانًا في السماء ليلًا بعد نجم الشعرى اليمانية، ضمن قائمة أشد النجوم سطوعًا.

قالت بإعجاب وعيناها تلمعان:

_لديكِ ثقافة رائعة حول النجوم يا ليل.

_كنتُ بحارًا فيما مضى ولطالما راقبت النجوم وسهرت معها وقرأت عنها وشُغفت بها، لقد اهتدى المسافرين في البر والبحر على معرفة الاتجاهات بواسطة هذا النجم، كان يسمى سفينة الصحراء، واعتمد عليه علماء الفلك المسلمون في العصور الوسطى على تحديد القبلة.

_سررت كثيرًا بهذه المعلومات، ليل ما دمتَ عاشقًا للبحر والنجوم فلماذا تعمل الآن في المطبخ؟

لمحت بعض الكآبة التي رُسمت على محيّاه، أجابها بمزاح:

_من يراني في المطبخ يعتقد بأنني أقرب لقارئ في الفنجان من أكون قارئًا مثقفًا يعرف الحروف الأبجدية صحيح؟

_آسفة لسؤالي.

_لسببٍ ما يا سُهيلة ما عدتُ قادرًا على المتابعة في ذلك العمل.

خيّم الصمت فوقفت مقتربة من البحر أكثر، رافعة رأسها بشغف نحو السماء:

_أحقًا يا ليل أن اسمي يدل على هذا النجم؟

_نعم، أنتِ نجمة يا سُهيلة، عليكِ ألا تنطفئي مهما حدث.

مضى الأسبوع بعد أن استنزف كل طاقتهم وجهودهم، فهمت سُهيلة نفسها خلال هذه الرحلة وعرفت مالذي كانت تحتاجه، جهزن أمتعتهن ووقفن على الشاطئ، وصلت السفينة، جاء الحارسان من بعيد واقتربا لنقل الأغراض للأعلى سألت سُهيلة:

_أين ليل؟

_ظننته هنا، كيف لم يأتي للآن وهو يعرف أننا سننطلق قبل الغروب.

قال أحد الحراس وأضاف الآخر:

_هيا اصعدن سأبحث عنه وأعود.

_سآتي معك.

حاول إقناعها بأنه سيتولى الأمر بنفسه لكنها أصرّت، وانطلقت تبحث بين الأكواخ والأشجار، لمحت جسدًا ممددًا على الأرض من بعيد، ركضت نحو بسرعة فإذا به ليل بالفعل،

ألتقطت أنفاسها منادية عليه، لكنها لم تتلقَ إجابة فزعت وأخذت تهزه وتنا

وأخذت تهزه وتناديه لكنه لم يتحرك، بدأت ترتجف وتسارعت دقات قلبها بجنون، ركضت عائدة لتطلب النجدة فصادفت الحارس، طلبت منه الإسراع معها، حينما وصلا تفقده بهدوء ثم قال:

_اطمئني، لا يزال على قيد الحياة، لكنه فاقدًا للوعي على ما يبدو.

حمله وعادا معًا للشاطئ، سارع ربان السفينة بالنزول عند رؤيته بتلك الحالة، فتح حقيبة ليل وأخرج كيسًا يحتوي أدوية، فأعطاه حقنة من أحد الأدوية وجلس لجواره مُطَمْئِنًا إياهم أنه سيصحو بعد قليل، كانت سُهيلة قلقة تذرع الشاطئ ذهابًا وإيابًا، استيقظ ليل معتذرًا عما حدث، وصعدوا جميعًا للسفينة، اختارت ركنًا

بعيدًا وجلست بالاتجاه المعاكس لانعدام رغبتها برؤية أي أحد، راقبت الشمس أثناء غرقها في قاع البحر مودعةً إياهم، سمحت لبعض الدمعات الدافئة بأن تتدحرج على وجنتيها لتفرّغ مشاعر الخوف التي تملّكتها قبل قليل.

_سُهيلة.

مسحت آثار الدموع بسرعة وتظاهرت بعدم السماع، أعاد ليل النداء فاستدرات إليه.

_آسف لجعلك تقلقين، القط بسبعة أرواح لن أموت هكذا بسهولة.

تابع بعد برهة من الصمت وأشعة الشمس البرتقالية تلوّن وجهه:

_إنني أعاني من مرض السكري، وإغماءات كهذه طبيعية في أي وقت.

فهمتْ الآن عدم تناوله لأي شيء يحتوي على السُكّريات، حتى الشاي والحليب يشربهما بدون سُكّر، أيضًا، شعرت بالأسى لأجله.

_هل هذا هو السبب الذي جعلك تترك عملك في الإبحار أيضًا؟

_نعم، حتى أنني لم أتزوج حتى الآن بسبب مرضي، أعتقد أن لا أحد يستحق العيش مع شخصٍ مريض، يحتاج لعناية ومراعاة لطعامه وشرابه وأدويته وإغمائه المفاجئ.

كانت نبرته حزينة وكلماته مغطسة بالمرارة.

هتفت:

_أبدًا، أنت تستحق حياة طبيعية كالآخرين.

_لكنني لن أحظَ بحياة حُلوة، أتعلمين؟ أنتِ قطعة السُكّر الوحيدة الموجودة في حياتي يا سُهيلة.

أطرقت رأسها بخجل، أضاف بعد برهة وهو غارقٌ في التحديق نحو السماء وكأنه يخشى ردة فعلها:

_ لا أدري إن كنتِ تتقبلين العيش معي أم تفضلين العيش معه، لكنني أراكِ الأكثر كفاءة بينهن لتكوني الأميرة للبلاد.

شعرت بحرارة الخجل في خديها الورديين، تنفّست بعمق قائلة بنبرة مشاكسة:

_صحيحٌ أنك مُعتم ومُظلم ومُخيف كالليل، إضافة لكونك مستفز أحيانًا، لكنني أُفضّل أن أكون نجمة في سمائك يا ليل على أن أكون أميرة لمملكته.

ضحك وأخذ يحدثها عن بقية النجمات.

لقد استشعرت سُهيلة خلال هذه الرحلة معنى الأمل والعمل والعطاء، ليست المشكلة دائمًا في تكرار الأيام، أحيانًا تكمن المشكلة في عدم وجود من يشاركنا إياها ويضفي عليها بعض الألوان والنكهات بوجوده الذي يبدد مرارتها، كانت تريد أن تصبح أميرة حتى يشعر الآخرون

بها ويرونها فتشعر بأنها موجودة، مرئية، مُقدّرة، تستحق الحب والاهتمام، لكن وجود ليل معها هنا منحها كل ذلك، فهو لم يراها فحسب بل جعلها ترى نفسها وتحبها من خلاله، كلاهما كان بحاجة للآخر ليستمر فلولا الأشياء المُرة لما عرف السُكّر بمدى حلاوته، ولولا الظلام لما رأى النجم سناء ضوءه.

***